



## عن المؤلف الإنساني

ترك جلالَةُ السُّلطان قابوس بن سعيد للعمانيين وللعرب وللإنسانية جمعاء إعلاناً للسلام والتعاون والإصلاح والنهوض عنوانه: **المؤتلف الإنساني**. وهو، رحمه الله، يضيف بذلك للنهضة العُمانية التي هو رائدها بُعداً جديداً خبرناه في سيرته وإنجازاته وسياساته هو همُّ نشر السلام والتسامح والتفاهم والمصالحة في المنطقة والعالم.

فمنذ خطابه الأول عندما تولّى السلطة عام 1970 جعل جلالَةُ السُّلطان قابوس السلام والتنمية الشاملة هدفين رئيسيين. وعليهما ومن أجلهما تأسست النهضة المباركة التي نقلت الشعب والدولة في عُمان من حالٍ إلى حالٍ، وتوالت تأثيراتها على الجوار والمحيط والعالم، سواء في نهجها الداخلي في إنشاء دولة المؤسسات، أم في السياسات الخارجية العاملة من أجل السلام والتعاون وُضِعَ الجديد والمتقدّم في العلاقات السياسيّة الوطنيّة والدوليّة والإنسانيّة.

في إعلان «المؤتلف الإنساني» تبدو تجربة السلطان الغنية على مدى نصف القرن. فتصوره للعالم الإنساني - والذي شكّله تجربة العزيمة والحكمة والمعروف والممارسة - أنه يمكن وينبغي أن يكون بيئاً أو بيئاتٍ للتألف والائتلاف والتعارف والمصالح المتبادلة، والقيّم الإنسانيّة الكبرى في الخير والمعروف. وما عدّ الإعلان هذه الصورة أو التصوّر بمثابة اليوتوبيا، التي تُغادرُ الواقع وتتقصد المثال المفارق؛ بل إنه وجد لها مرتكزاتٍ وأعلاماً في الواقع بما بلغه «عقل العالم» من تقديراتٍ وتدابيرٍ في الحال والمآل، سواء على مستوى الوحدات الصغرى أم وحدات المؤتلف الكبرى. فالواقع ليس مجموعةً أو نُثراً من الأحداث والأسباب والنتائج؛ بل هو ضميمة تتكون من الجهود والمساعي الإنسانية العاقلة، والأحداث، ووجوه الوعي والتقدير، والآفاق التي تنفتح على هذا الخيار أو ذاك. وصحيحٌ أنّ التاريخ ليس مساراً مستقيماً؛ لكنّ رغم التعرجات؛ فإنّ العقل العامّ أو عقل العالم هو عقلٌ غائيٌّ تقوده المصالح الإنسانيّة الكبرى، أيّاً تكن المفاهيم المختلفة للتقدّم.

إنّ المشكلة الحاضرة للعالم بحسب الإعلان - والتي تقيم حوائل وعقبات أمام اكتمال تحقيق المؤتلف الإنساني لذاته ومقتضياته في السلام والعدالة والتعاون والتضامن - تبدو في الاختلالات التي أحدثتها «التقدّم» العلمي والتكنولوجي الهائل، وفي استمرار المغالبة للهيمنة على الموارد والمجالات الاستراتيجية، وفي ظواهر العولمة التي تُقدّم المادي على الروحي في التعامل مع إنسانيّة الإنسان. وفي كل ذلك أو في مواجهته يريد الإعلان استعادة التوازن في فكر الناس وعملهم؛ للخروج من توازن القوى إلى قوة التوازن.

إنّ هذا التشخيص للمشكلة هو الذي حدّد المنهج أو المقاربة، وهو المنهج القيمي والمقاربة الأخلاقية. ولذلك وبعد الاستهلال - الذي شخّص التأزم الحاصل في المؤتلف الإنساني، والبُعد الفلسفي والرؤيوي للمنهج القيمي - مضى الإعلان مباشرةً إلى تحديد القيم الكبرى الحاكمة في

المؤتلف، والتي تهبه معناه وإنسانيته، وهي: العقل والكرامة والسلام والعدالة والأخلاق. العقل من حيث هو قوة للإدراك والتقدير والتدبير وتوجيه المصير الإنساني. والكرامة من حيث هي الخصيصة العميقة لإنسانية الإنسان، والناجمة عن التساوي في العقول والقيمة والحق. والسلام من حيث هو القيمة والحق الحافظ لبقاء الإنسان وازدهاره. والعدالة من حيث هي القيمة الحافظة لكرامة الإنسان واستقراره. والأخلاق، من حيث هي أعراف ومواضع في التعامل بين البشر، ومن حيث هي أخلاق للمسؤولية الفردية والجماعية.

ونلاحظ هذا التقديم الدال في الذكر للسلام على العدل. وكانت مقدمة الإعلان قد أشارت إلى الإرغامات التي فرضتها الاختلالات الطارئة على نظام العالم؛ بحيث تبدو الافتراقات المصطنعة بين السلام والعدالة. فالعدالة - من حيث هي قيمة أخلاقية وإنسانية كبرى، ودافع رئيس في الثورات والاضطرابات ضد شتى المظالم - لا يمكن إحقاقها دائماً مقترنة بالسلام والاستقرار، ويكون على زعيم كبير - مثل جلالة السلطان قابوس صاحب تجربة هائلة في السعي الدائم للسلام والعدالة معاً - أن يقدم السلام، بدلاً من دمار القيمتين، إذا استحال تحقيقهما معاً في ظروف ووقائع عدم التأكد، وتفاقم الاضطراب. وهذا لا يعني إهمال العدالة أو تأجيلها. وإنما خلال العمل الدؤوب من أجل السلام الدائم ينبغي الدفع باتجاه بناء العدالة وبالتدرج على أساس اقتران الاستقرار بالإنصاف. والواقع أن كلاً من القيمتين تشكل ضماناً للأخرى. ولذلك فإن الإعلان عاد مرة أخرى للعدالة في البند الثالث، تحت عنوان البعد القانوني، أو حكم القانون عندما انتهى من الحديث عن القيم الإنسانية الكبرى في «عقل العالم»، وانتقل إلى الحديث عن تجليات تلك القيم في أعمال الدول ونظام العالم.

وكما نرى فإن الإعلان ميّز بين القيم والأخلاق ليس من حيث الأصل، بل من حيث الوظائف؛ فذكر الأخلاق في فقرة خاصة من حيث هي أعراف ومواضع وأساليب تعارف عليها الناس للتعامل فيما بينهم. وهي بالطبع

ثوابتُ نسيباً يطرأ عليها التغيير والتعديل والتبديل؛ لكنها ينبغي أن تبقى أخلاقاً عالميةً بحسب تعبير المفكر الكاثوليكي هانس كينغ. إنما البارز في هذا السياق استطرادُ الإعلان إلى ذكر أخلاق المسؤولية لدى الأفراد والجماعات، تُجاه الجوار، وتُجاه البيئة، وتُجاه مآسي الحاجة والعنف، وفي المجتمع المدني العالمي، وفي النظام الدولي.

في البنود الثالث والرابع والخامس لإعلان المؤتلف الإنساني يجري عَرْضُ المجالات العالمية، التي يرى الإعلان أنه لا بدَّ من أن تنهض القيم الكبرى لتشتغل وتُفعل فيها لتحقيق مقتضيات المؤتلف وأهدافه. في البند الثالث (البُعد القانوني) تتمدح الأنظمة الديمقراطية بحكم القانون، وهو أمرٌ شديد الأهمية؛ لأنه يعني المساواة ويعني العدالة. والإعلان يُرحّب بذلك بالطبع. لكنه يلاحظ أنّ هذه الممارسة صارت شكلانية إلى حدِّ ما. ويأتي ذلك من أنّ القوانين تتغيّر وتزداد وتتكاثر تبعاً لظروف كل مجتمع وخصوصيته. ويؤدي ذلك أحياناً إلى تجاهل أو تجاوز القيم والحقوق الإنسانية العامة، وأهمها قيمة العدالة. بمعنى أنّ هذا البند من الإعلان يريد أن تبقى مرجعية القانون العدالة بوصفها قيمة. ولذلك عندما كتب فيلسوف القانون الأميركي جون راولز كتابه: نظرية العدالة (1972) - ذاهباً إلى أن حكم القانون أخصّ خصائص الأنظمة الليبرالية الديمقراطية - كان هناك من لاحظ أنّ العدالة لا تنحصر في حكم القانون. ولذلك عاد فكتب رسالته: العدالة بوصفها إنصافاً Fairness

أما في البند الرابع من الإعلان؛ فإنّه عالج المسألة الشائكة والمتمثلة في إشكاليات الهوية والانتماء؛ فالهويات الصغرى الدينية والإثنية واللغوية والجهوية تتعرّض لضغوطٍ شديدةٍ بما يتنافى مع الكرامة والعدالة من جانب الأكتريات لهذه الجهات. فالأقليات متوترة، والأكتريات في العقود الأخيرة متوترة. والإعلان يرى أنّ قيم واعتبارات العقل الرشيد والكرامة والسلام الوطني والعالمي والمساواة والمواطنة والعدالة هي التي ينبغي أن تتدخّل وتُفعل. والمؤسسات الدولية في الأساس تملك صلاحياتٍ في مجال الانضباط والعدالة والتدخل الدولي الإنساني، والسلام العالمي. هناك

تقصيّرٌ وليس قصوراً؛ لأنّ الهويات الثائرة تهدّد السلام العالمي، وسواء أكانت أكثرية أم أقلية.

أما في البند الخامس فقد تناول الإعلان البُعد الاستراتيجي والجيو-استراتيجي في تأثيراته في المؤتلف الإنساني. في الجانب الاستراتيجي يتكون نظام العالم من دولٍ وكياناتٍ (قومية) ذات سيادة داخلية في الأمم المتحدة، لكنّ هذا النظام لا يتمتع بالاستقرار اللازم بسبب التدخلات التي تعاني منها الدول الصغرى من جانب القوى الكبرى في النظام العالمي. وهناك الجانب الجيو- استراتيجي. فالعالم منقسمٌ داخل الأمم المتحدة وخارجها إلى مناطق جيواستراتيجية، تسيطر فيها قوى كبرى أو وسطى على الكيانات والبحار والأجواء، من أجل الموارد والنفوذ. وفي ظلّ وضع كهذا، وحيث يسود الصراع والتدخلات والحروب الصغيرة والكبيرة، لا يتمتع المؤتلف الإنساني بفرص كبيرة للسلام والازدهار. وهنا تبدو الضرورة الكبرى لتدخل القيّم الكبرى في النظام العالمي، من خلال المؤسسات الدولية، ومن خلال المجتمع المدني العالمي. وهنا أيضاً ينبغي أن تظهر قوة ورُشد «عقل العالم».

ويأتي البند السادس والأخير في الإعلان ليرسم المنهج العملي لتحقيق السلام العالمي والإنساني من خلال الحوار والتداول باعتبار التواصل أفقاً لإنسانية الإنسان. وهنا تبدو تجربة جلاله السُلطان قابوس في أوضح صُورها وأبعادها. وهنا يبدو المؤتلف الإنساني في ذروة قوته وفعاليته في عقل وممارسات المساواة والحرية والعدالة والاختلاف وإمكانيات التوافق والإجماع. ولتزمين ذلك كله يذكر الإعلان عدة أشكالٍ ومستوياتٍ للحوار التداولي، ومن الحوار الوطني، إلى الحوار الإقليمي، إلى الحوار والتفاوض في المؤسسات الدولية، والحوار المدني العالمي. في هذه المستويات يمارس الأفراد، وتمارس الجماعات حريتها وإنسانيتها في التواصل والتعارف والإقناع والاقناع والتصالح على المصالح المتبادلة.



تُخصّصُ مجلة التفاهم هذا العدد لإعلان السُّلطان قابوس للمؤتلف الإنساني. وفي بداية العدد ننشر الإعلان الكبير، ثم تأتي مقالات العدد ودراساته في الموضوع. وللمجلة علاقةً خاصةً بجلالة السُّلطان قابوس رَحِمَهُ اللهُ؛ فهو الذي وَجَّه بإصدارها في مطلع القرن الحادي والعشرين، وأعطاهَا اسمها الأول: التسامح، وبعد العدد 30 أعطاهَا اسمها الحالي: التفاهم، وكان رَحِمَهُ اللهُ دائماً في طبيعة قرائها ومتابعيها. ويلاحظ فوراً عندما تتأخر في الصدور أو تتردد في نقاش وتداول المسائل الساخنة؛ بل يوجّه أحياناً لبحث القضايا العالميّة والإنسانيّة المستجدة.

يبقى جلاله السُّلطان قابوس رَحِمَهُ اللهُ ما بقيت النهضة العُمانية التي أطلقها، وما بقي الهمُّ العالمي والإنساني في السلام والتسامح والتفاهم والتنمية، وكل قضايا الإنسانية الكبرى، وفي طبيعتها قضية التحقق والإنجاز المستمر للمؤتلف الإنساني.

**عبد الرحمن السالمي**

رئيس التحرير